التعليم المختلط

للأستاذ رفعة الحنبلي

أجابت الأمم العربية ، فى الآونة الأخيرة ، لنوازع التجديد الأوربى الحديث من نواح عديدة ، سياسية واجتماعية ، أدبية وعلمية ، فأخذت بالبعض منها وهمت بالبعض الآخر ؛ وأبعد هذه النواحى أثراً فيها الناحية العلمية التربيوية التى أخذت بها ، إذ أنها استبانت طريقها على ضوئها ، وبدأت تتمشى حسب أنظمة التعليم الحديثة فى معاهدها وكلياتها وجامعاتها ، بعد أن بقيت ردحاً من الزمن محافظة على القديم منها ، وراحت تتفهم مبادئها السليمة وتتلمس طرقها القويمة ، وتزاوج بين القديم منها والحديث إلى أن أسبلت عليها رداء جديداً ، وأسبغت عليها لوناً طريفاً ؛ وكان أن ارتاحت إلى هذه الأنظمة وصادفت هوى فى نفسها ، فرضيت به كبداً يستحثها على مماشاة النهضات العلمية العالمية ، ويدفعها إلى تبوء مركزها الرفيع بين الأمم

وفى الواقع نرى الأمم العربية قد أعدت نفسها إلى الأخذ بهذه المبادئ التربيوية — التى اعتكف علماء التربية على دراستها دراسة وافية شاملة ، والتفقه فيها تفقهاً عميقاً ، طوال سنين عديدة — فأقبلت عليها وسارعت إلى إقرارها ؛ وكان أن تبدلت الأنظمة ، وتغيرت الأسس ، وتلونت المناهج وفقاً للمبادئ التعليمية الحديثة التى تتلاءم مع احتياجات المجتمع وتطور البيئات ؛ ومن أهم تلك المبادئ مبدأ التعليم المختلط Coéducation الذى كثر الجدل حوله بين كبار المربين ، واحتدم الكلام بين علماء النفس فى منافعه ومضاره ، فمنهم من أقره ورغب فيه ، ومنهم من أنكره وصدف عنه ، ولكل منهم أنصاره وأعوانه وحججه وتجاربه

على أن الأمم العربية لم تأخذ بهذا المبدأ — مبدأ التعليم المختلط — فى جميع مراحله من ابتدائية وثانوية وجامعية ؛ بل اقتصرت على الدراسات العالية ، أو بالأحرى اقتصرت على الدراسة فى الجامعة وحسب ؛ ولذا نشاهد ارتياد الفتاة الجامعات دون غيرها

لنتصفح أوجه الرأى المختلف عليه فى قضية هذا التعليم المختلط ، ولندرس عناصره وعوامله ولنقف على ظاهره وخافيه ؛ ولنرسم خطوطه الكبرى كى نتفهم خصائصه ونستبطن دخائله

إن أول أمة أخذت بالتعليم المختلط هى الأمة الأمريكية ، وهو طريقة تعليمية جديدة من مبادئه أن يتلقى الفتيان والفتيات التعليم والتثقيف معاً فى معهد واحد وفى وقت واحد ، مع مراعاة درجة معارفهم ومستوى معلوماتهم وتفاوت أعمارهم دون النظر إلى الفارق الجنسى ، على أن يشرف على هذا التعليم أساتذة من كلا الجنسين

والتعليم المختلط على أنواع ثلاثة : نوع يعرف بالتعليم المطلق أو التام Coéducation intégrale والغاية منه تهيئة الطلاب من كلا الجنسين للعلم وإعدادهم للحياة الاجتماعية التى تستدعيها البيئة وتقضى بها الحضارة ؛ ونوع آخر يعرف بالمدرسة المختلطة école miscte وفيها يجتمع الجنسان فى الفصول وحسب ؛ والنوع الأخير هو ما يطلق عليه التعليم المختلط المقيد Coéducation restreinte وهدفه تهيئة الطلاب والطالبات للعلم وإعدادهم للحياة الاجتماعية على شرط أن ينظر إلى خصائص هاتين الفئتين من عقلية ونفسية حتى تتلاءم مع استعداد الأفراد من الجنس الواحد وميولهم ورغائبهم ومع بعض الاعتبارات والعوامل مادية كانت أو معنوية

ولتحقيق فكرة التعليم المختلط وجب تحقيقها ، فى بادىء الأمر ، على الأساتذة الذين يشرفون عليها أو بالأحرى وجب أن تكون الهيأة التعليمية — كما يقول الدكتور Burness فى كتابه القيم « التعليم المختلط فى المدارس الثانوية » — مؤلفة من مربين ومربيات ليتلقى الطلاب ، على المعلمات ، بعض الدراسات كما تتلمذ الفتيات على بعض المربين

وإذا ما أهملنا الجانب المادى الذى يتحكم فى مصير هذه الفكرة تحكماً شديداً ، والذى من شأنه أن يدفعها إلى التقدم دفعاً سريعاً ، ويدنيها من غايتها المثلى . على نحو ما يذهب إليه بعض علماء التربية ، وجدنا أن البعض الآخر يتساءل عما إذا كانت هذه الفكرة تتفق والتطور الطبيعى من حيث القابلية والاستعداد لكل فئة من هاتين الفئتين من الجنسين؟ ... ربما يتعلق جواب هذا التساؤل بدراسة نفسية كل منهما من النواحى التى تتصل

اتصالاً وثيقاً بعلم النفس : كتطور الميول ، وتباين الرغائب ، واختلاف القوى واحتمال التعب وغيره

ولكن هل يصح لنا أن نرد تباين هذه النواحي إلى التربية العائلية وخصائص البيئة وعزايا الفرد ، أم أنها تتعلق بالجنس من حيث هو جنس ؟

في الواقع أن هذه النواحي ترجع إلى اختلافات جنسية ذات تأثير كبير يجعل التباين بينهما إلى أبعد حدوده

قلت : إن أول أمة فكرت في هذا النوع من التعليم المختلط هي الأمة الأمريكية ، وما أن استهل القرن العشرون حتى فشا هذا النوع في جميع معاهدها من ابتدائية وثانوية وجامعية ؛ وبلغ عدد المعاهد الثانوية بحسب إحصاء رسمي قامت به حكومة الولايات المتحدة عام ١٩٠٩ — ١١٠٧٥ معهداً مختلطاً يؤمها ٩٢١٧٣٦ طالباً وطالبة تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة منها ٩١٩ معهداً خاصاً بالطلاب عدد أفرادها ١١٠٧٢٥ طالباً ؛ مع العلم أن هذا الإحصاء لا يشمل العدد الوفير من المعاهد المختلطة التي تشرف عليها الجمعيات الخيرية والدينية ، وبلغ عدد الجامعات في إحصاء آخر ٦٢٢ جامعة منها ١٥٨ جامعة خاصة بالفتيان و١٢٩ جامعة خاصة بالفتيات و ٣٣٥ جامعة مختلطة ؛ فالفتيات إذاً يختلفن إلى المعاهد الثانوية بنسبة ثمانين في المائة ، وهي نسبة جد مرضية أما المدارس الابتدائية فيتردد عليها مئات الألوف من كلا الجنسين على السواء ...

ولم يقف هذا التجدد عند الأمة الأمريكية فحسب ، بل تعدى إلى الأمم الأخرى أشهرها التي تقطن شبه جزيرة اسكندينافية ، وكذلك الأمة الفرنسية والألمانية والأسبانية وسواها . واجتاحت موجة هذا التجدد الأمة الإيطالية أيضاً فأصدرت قانوناً في الرابع من شهر حزيران عام ١٩١١ أحالت بموجبه جميع معاهدها إلى معاهد مختلطة ، وكذلك دور المعلمين أيضاً حيث كان الانتساب إليها مقصوراً على الطلاب

وأبدلت الحكومة الإنكليزية بدورها منذ مدة غير بعيدة ولأسباب اقتصادية جميع معاهدها الابتدائية والثانوية إلى معاهد مختلطة ، إلا أنها قيدت التعليم المختلط بما يختص بالتعليم الثانوي حيث يجتمع الجنسان في بعض المواد وفي المختبرات وعند تناول الطعام على أن يسمح لهما في الاجتماع في الأمسيات التي يقضونها معاً يستمعون إلى محاضرات في شتى العلوم والآداب والفنون

من هذا يتبين لنا أن التعليم المختلط قد فشا بين أكثر الشعوب المتحضرة والأمم المتمدينة وعمّ الأصقاع الأوربية والأمريكية وتناول بعض الأصقاع الشرقية أيضاً

غير أن هنالك نظريات متباينة ، في صدد هذا التعليم ، من حيث منافعه ومضاره ، أثارها علماء النفس والاجتماع والتربية ، اضطربت فيها عناصر مختلفة من القيم ، واحتربت فيها مذاهب كثيرة من التفكير فنرى الأستاذ Henning ، أحد المربين الأمريكيين ، لم يتوان عن إبداء رأيه العنيف فيما يتعلق باختلاط الجنسين في معهد واحد ، بعد اختبار نيفت مدته على خمسة عشر عاماً . فإذا به يقول : « لمست في المدارس الابتدائية Public Schools الصداقة العميقة والحب العنيف بين طلابها وطالباتها وقلما تشاهد فتى لا يفزع إلى رفيقة له ، حيث يختلفان معاً إلى دور الخيالة « السينما » — على حد تعبير الأستاذ البشري — وإلى المتنزهات العامة ، وكثيراً ما تتوافر الهدايا على الطالبات من الأيفاع المحبين ، وكثيراً ما تتعدد زيارات الفتيان المولهين للفتيات » ويقول أيضاً : « أما في المعاهد الثانوية High Schools فيكفي أن تصيخ السمع قليلاً لتتأكد أن المحاورة التي يأخذ بها الطالب مع صديقته الطالبة بعيدة أقصى درجات البعد عن حل مسألة جبرية أو إعطاء رأي في قيصر أو إنعام نظر في مذهب من المذاهب الأدبية أو العلمية أو غيرها . . . » وقد لا نستغرب من الفتاة ، في هذه الحالة ، تغيبها المتواصل عن المعهد أسبوعاً أو أسبوعين بسبب هذه النوازع العاطفية ، وبفضل هذه الأحاسيس العنيفة

حمل المربي الكبير العالم Stanly Hall على التعليم المختلط ، في مرحلة التعليم الثانوي ، حملة عنيفة ، استند فيها على اختباراته الخاصة التي قام بها طوال أعوام عديدة ، إذ أنه يرى الفتى يفقد شيئاً من رجولته ، والفتاة شيئاً من أنوثتها ، وكذلك يرى أن الخصائص الفردية والمزايا الشخصية ، لكل من الجنسين ، تنحدران إلى هاوية سحيقة قد لا يسلم من خطرها الفتى أو الفتاة وقد ينتج من هذا الخطر نقص في الزواج في المستقبل القريب

أو البعيد ، ولا أدل على ذلك من أن معهداً كان يضم بين جدرانه ٥٦٠ فتاة تأهل منهن أربع وستون منهن اثنتا عشرة فتاة تزوجن زملاءهن فى الدراسة

لذلك نجد أن Hall و Henning حملا على التعليم المختلط فى هذه المرحلة حملة فيها كثير من العنف والخشونة على الرغم من اعتراف الأول ببعض حسناته ؛ وتذهب السيدة Hosch Ernest إحدى المربيات العالمات مذهب زميليها ، وهى بعد تعتقد بأن تأثير التعليم المختلط هو أبقى أثراً على الفتيان منه على الفتيات ، فأولاء يحتفظن بأنوثتهن بينما أولئك يفقدون شيئاً من رجولتهم ، ودللت على صحة ما ذهبت إليه بما قامت به من الاختبارات فى عدة مدارس مختلفة الأنواع ، حيث رغبت إلى الطلاب أن يعرّفوا لها « الحب » ؛ فكانت أجوبة الطلاب الذين لم يختلطوا فى يوم من الأيام تتناول الحب الأبوى والحب الأخوى والحب الإنسانى وسواه ... أما أجوبة طلاب المدارس المختلطة فكانت تتضمن الحب الوجدانى والحب العاطفى وغيره ...

والواقع الأليم أن الفتاة لا تستطيع أن تحتفظ بأنوثتها فى اختلافها إلى المعاهد المختلطة ، بل لا بد لها من أن تفقد شيئاً منها كما نوه بذلك العالم الكبير Hall بل لماذا لا نذهب إلى أبعد من هذا الحد فنقول أن الفتاة قد تخسر شيئاً من خصائصها وتفقد قليلاً من مزاياها ، وقد يتلون قسم من عواطفها ويتبدل كثير من نفسيتها ... عوامل قد يكون لها أسوأ الأثر ليس على حياتها الحاضرة فحسب بل وعلى مستقبلها أيضاً . فالصداقة التى تتأصل فى أطواء نفسها ، وهى على مقعد الدراسة تدفعها للتعرف على الفتى من ناحية نقائص والناحية التى تتعرف عليها وهى على غير مقعد الدراسة ، أو بعبارة ثانية أنها تتقرب إلى الفتى عن طريق الصداقة لا عن طريق الحب الذى تنشده ليلها ونهارها إذ تفتقر بذلك إلى الرجل المثالى Homme idéal التى تسمى وراءه

وهى إلى ذلك تتأثر إلى أبعد حدود الأثر بمعاشرتها للفتى ، فتتغير عقليتها ، وتتبدل نفسيتها ، وتتلون عواصفها ويتحول طراز معيشتها إلى حد تلتزم فيه تقليد الفتى تقليداً قد يكون تاما أو لا يكون ، فى معاملته أو فى حديثه أو فى خشونته أو فى لباسه أو غير ذلك ، وهكذا تراها تتسم بمزايا الرجولة التى كثيراً ما تجعل الرجل يصدف عنها ويعزف عن الحياة الزوجية إذا ما فكر فى الزواج ، وقد يثور الرجل على هذا التطور فى أخلاق الفتاة ، وعلى هذا التبدل فى نفسيتها بعد أن يكون قد قبله ورضى عنه حينما كان طالباً

ونصيب الفتى من هذا التطور فى الميول والعادات لا يقل أثراً عن نصيب الفتاة منه ، بل ربما كان أبعد مدى فيه منها ، فإذا هو مائع الرجولة ، أنثوى الأخلاق ، فقير الخصائص ، فاقد المزايا . .

فالتقارب إذاً بين الفتى والفتاة يحور بعض مزاياه الطبيعية ويضعف بعض خصائصه الجنسية ، وإن كانت بعض هذه الخصائص ترتفع وتسمو ، وبعض هذه المزايا تنبل وتعلو

على أن بعضاً من العلماء يقولون إن التعليم المختلط هو من أحسن الأنظمة التعليمية الجديدة وأرقاها ابتكرتها عقول جبارة نيرة ، فيعترفون بأفضليتها ويقرون بحسناتها ويرتاحون إلى نتائجها على أن يقتصر هذا التعليم على الابتدائى والجامعى ؛ أما التعليم الثانوى ، فأشد ما يكون خطراً على أخلاق الناشئة وآدابها ؛ غير أن البعض الآخر يقول بالتعليم المختلط فى أدواره الثلاثة : الابتدائية والثانوية والجامعية

(البقية فى العدد القادم) رفعة الخطيبى

إدارة البلديات — طرق

تقبل العطاءات بمجلس المحلة الكبرى البلدي لغاية ظهر ١٥ يوليو سنة ١٩٤٠ عن توريد فحم كارديف ونيوكاسل وتطلب الشروط من المجلس نظير مائة مليم ١٩١٤